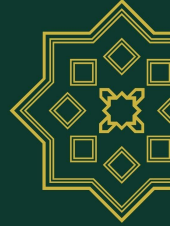
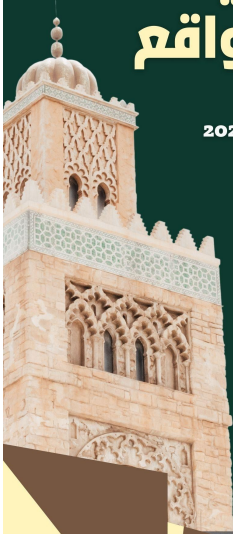




إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية  
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

بحوث الملتقى الدولي الثامن  
**جهود علماء الغرب الإسلامي  
في تنزيل النص القرآني على الواقع**

بتاريخ: 22 و 21 ربيع الثاني 1444هـ / الموافق لـ 15 و 16 نوفمبر 2022



# تنزيل النص القرآني على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور - رحمه الله -

د / سلمى حضيض تركي العوفي

جامعة طيبة- المدينة المنورة- المملكة العربية السعودية

[sht1432@hotmail.com](mailto:sht1432@hotmail.com)



## ملخص

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:  
فهذا بحثٌ تناولت فيه موضوع تنزيل النص القرآني على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور -رحمه الله-، وتكمن أهميته في الكشف عن هدايات القرآن وسننه وأسراره التي جعلت منه خطاباً ربانياً عالمياً خالداً، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، وفي ذلك رد على من زعم تاريخية النصوص القرآنية. ويهدف إلى بيان عناية ابن عاشور -رحمه الله- بمسألة تنزيل النص القرآني على الواقع تأصيلاً وتطبيقاً، والكشف عن معالم منهج ابن عاشور -رحمه الله- في تنزيل النص القرآني على الواقع، وذكر أبرز القضايا والأحداث في عصر ابن عاشور رحمه الله وتزيله الآيات عليها، وبيان أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي عند ابن عاشور رحمه الله. وقسمت خطة البحث إلى مقدمة ومبحثين: المبحث الأول : الدراسة النظرية، وتحوي التعريف بمفردات العنوان، والتعريف بالإمام ابن عاشور رحمه الله، ومعالم منهج الإمام ابن عاشور رحمه الله في تنزيل النص القرآني على الواقع. أما المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية، وتحوي أبرز القضايا والموضوعات التي نزل ابن عاشور الآيات عليها، وأثر تنزيل الآيات على الواقع في الإصلاح الاجتماعي.  
من نتائج البحث:

- تبين من خلال البحث في مفهوم تنزيل النص على الواقع قلة من كتب في تأصيل هذه القضية، وتقصير العلماء والباحثين في بيان علم التنزيل تأصيلاً وتطبيقاً، ولعل هذا الملتقى يسد هذه الثغرة العلمية ويجلي فروعها النظرية والتطبيقية.  
- عناية الإمام ابن عاشور رحمه الله بضوابط التنزيل ومن أبرزها: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن تفسير القرآن مرتبط بفقهِ المقاصد، وإن مشاهدة الواقع يعين على تفسير الآيات القرآنية.  
الكلمات المفتاحية: تنزيل النص، الواقع، ابن عاشور، التحرير والتنوير، الإصلاح الاجتماعي.

## المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9]، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن الكريم فيه هدى ونور وبينات، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرج من استضاء به من الظلمات إلى النور، ففيه الهدى والرشاد والصلاح وإقامة مصالح الخلق، وتحقيق سعادتهم الدنيوية والأخروية.

لقد اعتنى أهل العلم قديماً وحديثاً بتدبر القرآن العظيم وتأمل آياته، والوقوف عند أحكامه وتوجيهاته، واستنباط العلاقة بين الواقع وحكمه وهداياته، والمقارنة بين الأحداث المستجدة في عصورهم وما يناسبها من آيات القرآن وتوجيهاته، وتفاوت المفسرون في تنزيلهم الآيات على الواقع، قلة وكثرة، تصريحاً وتلميحاً، بحسب مناهجهم التفسيرية، أو قوة الأحداث وشدة الوقائع والنوازل في عصرهم.

وكان من الأئمة الأعلام والعلماء الكرام الذين عاشوا حياتهم بالقرآن ومع القرآن فقها وفهماً، وتدبرا وعلماً، وتطبيقاً وعملاً، الإمام محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- (ت1393هـ)، فكان له اهتمام خاص وعناية متميزة بتفسير القرآن الكريم، وربط معاني الآيات القرآنية بالواقع، مما كان له أثر في الإصلاح الاجتماعي في عصره، فجاءت مؤلفاته غنية بمسألة تنزيل الآيات على الواقع خاصة تفسيره: (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد) المشهور باسم (التحرير والتنوير).

### مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتلخص مشكلة البحث في كيفية التعامل مع النص القرآني؛ حيث تعددت جهود المفسرين قديماً وحديثاً في شتى الأقطار الإسلامية شرقاً وغرباً في تعاملهم مع الآيات القرآنية وتفسيرها، ومن أبرز المسالك الحديثة في التفسير بالرأي تنزيل الآيات القرآنية على الواقع.

وهذا البحث يتطلع إلى إبراز جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل الآيات على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي، من خلال الكشف عن التنزيلات القرآنية عند الإمام ابن عاشور -رحمه الله- في تفسيره التحرير والتنوير.

ولذا رأيت أن أضع تفسير الإمام الطاهر بن عاشور (التحرير والتنوير) على محك النظر والفحص للإجابة على السؤال الآتي: ما مدى عناية الشيخ ابن عاشور بمسألة تنزيل النص القرآني على الواقع؟ ويتفرع عن هذا السؤال عدد من الأسئلة الآتية:

- ما المقصود بتنزيل النص القرآني على الواقع ؟

- ما معالم منهج ابن عاشور في تنزيل النص على الواقع من خلال تفسيره التحرير

والتنوير؟

- ما أبرز القضايا التي نزل فيها ابن عاشور النص القرآني على الواقع؟  
- هل كان للواقع المعاصر والأحداث الجارية دور في تنزيل النص على الواقع عند ابن عاشور؟

- ما أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي؟  
الدراسات السابقة:

من أبرز الدراسات التي سبقت هذا البحث ما يأتي:

- (تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق-) للدكتور: عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر، وهو كتاب<sup>(1)</sup> قيّم في بابه، وضعه مؤلفه في قسمين: الأول: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، أما الثاني: تطبيقات التنزيل المعاصر من خلال تفسير المنار ومجالس التذكير.

- (ضوابط تنزيل النص على الواقع) للدكتورة: ميادة بنت محمد الحسن، أستاذ الفقه والأصول المساعد في جامعة الملك فيصل، بحث منشور في مجلة العدل، العدد الثالث والسبعون.

- (تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن القيم رحمه الله) إعداد الدكتور: يحيى محمد زمزي، أستاذ مشارك بكلية الدعوة واصل الدين في جامعة أم القرى، ونشر في مجلة البحوث والدراسات القرآنية العدد الرابع.

ويُلاحظ على هذه الدراسات والبحوث السابقة وغيرها مما وقفت عليه أنها تناولت الموضوع من جانبين: الأول: من حيث تأصيله كما في الدراسة الأولى والثانية، الجانب الثاني: من حيث تطبيقه عند أحد العلماء كما في الدراسة الثالثة عند الإمام ابن القيم رحمه الله، أما هذا البحث فيتناول تنزيل النص القرآني عند الإمام ابن عاشور رحمه الله تأصيلاً وتطبيقاً وأثر ذلك في الإصلاح الاجتماعي.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في جوانب عدة، منها ما يأتي:

- الكشف عن هدايات القرآن وسننه وأسراره التي جعلت منه خطاباً ربانياً عالمياً خالداً، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، وفي ذلك رد على زعم وتوهم تاريخية النصوص القرآنية.

- لفت النظر إلى نوع من مناهج التفسير لم يؤلف فيها إلا قليل من المفسرين وهي

(1) كتاب مطبوع ومنشور في سلسلة الدراسات القرآنية (4) الصادرة عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 1428هـ/2007م.

منهجية تنزيل النص القرآني على الواقع.

- أنه بحث يتناول علم من أعلام التفسير المعاصر الذي تميز بكثرة مصنفاته وتنوعها واتساع موضوعاتها، ولاشك أن تتبع التنزيلات القرآنية عند ابن عاشور رحمه الله، وتجليتها يجعل الإفادة منها حاصلة، وهذا مثر للمكتبة الإسلامية.

- أنه بحث لم يستطد كثيرا في الجانب النظري التأصيلي المتعلق بقضية تنزيل النص على الواقع، وإنما جعل شقه الأبرز في الجانب التطبيقي وهو ما يجعله حافلا بال نماذج والنصوص الكثيرة المقتبسة من التحرير والتنوير ضرورة، والمؤيدة بنصوص من كتبه الأخرى؛ مما يوفر على طالب العلم جهداً كبيراً ووقتاً وثيراً في التنقيب عن جهود الشيخ ابن عاشور في قضية التنزيل على الواقع.

- حاجة الناس لربط واقعهم بالنص القرآني، وتطبيق آياته على أحوالهم، لاسيما في هذه العصور التي كثرت فيها النوازل والمستجدات، وانتشرت الأهواء والجهالات.

#### أهداف البحث:

- بيان عناية ابن عاشور بمسألة تنزيل النص القرآني على الواقع تأصيلا وتطبيقا.
- الكشف عن معالم منهج ابن عاشور رحمه الله في تنزيل النص القرآني على الواقع.
- ذكر أبرز القضايا والأحداث في عصر ابن عاشور رحمه الله وتنزيله الآيات عليها.
- بيان أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي عند ابن عاشور رحمه الله.

#### دواعي اختيار الموضوع:

إن موضوع جهود العلماء في تنزيل النص على الواقع لم يأخذ حظه من البحث والدراسة والبيان، ولم يفرد في مؤلفات مستقلة عدا إشارات يسيرة في بطون الكتب وأبحاث قصيرة لجهود بعض العلماء في هذه المسألة، ولاشك أن الكشف عن هذا الموضوع يحتاج إلى كتب وموسوعات بحثية ومؤتمرات وملتقيات علمية تسهم في تجلية جهود السابقين في تنزيل النص على الواقع تأصيلا وتطبيقا؛ فجاء هذا البحث استجابة لدعوة اللجنة العلمية بقسم أصول الدين بجامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - للمشاركة في الملتقى الدولي الثامن: "جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع"، ورغبة من الباحثة في الإسهام ببيان جزء يسير من جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص على الواقع، اخترت المشاركة في المحور الرابع: توظيف تنزيل النص على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي عند الإمام ابن عاشور رحمه الله.

#### منهج البحث وإجراءاته:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي والتحليلي، وذلك بجمع آراء ابن عاشور رحمه الله المتعلقة بالموضوع وعرضها وتحليلها.

- إجراءات الباحث: لقد سرت في بحثي هذا وفق الضوابط المنهجية الآتية:  
أولاً: الاقتصار على تفسير التحرير والتنوير والإفادة من كتب المؤلف الأخرى مثل كتابه (أصول النظام الاجتماعي) وكتاب (أليس الصبح بقريب).

ثانياً: اتبعت طريقةً في البحث عن تنزيلات ابن عاشور وتلخص في الآتي:

1- تتبعت تفسير "التحرير والتنوير" واستقرت المواضيع ذات العلاقة بالبحث، ولا أدعي أنني أتيت على كل المواضيع نظراً لحجم الكتب الكبير وضيق الوقت المخصص لتقديم البحث، وهذا يحتاج إلى مشروع بحثي يشترك فيه عدد من الباحثين، وحسبي أنني وقفت على أغلب المواطن التي تخدم الموضوع، من خلال البحث باستخدام المصطلحات والألفاظ التي يغلب استعمالها في تنزيل الآيات على الواقع المعاصر، واستخدمت في ذلك برنامج المكتبة الشاملة.

2- تتبعت المقدمات كاملة وعددها عشر مقدمات بالإضافة إلى مقدمة المصنف، ووجدت لابن عاشور كلاماً نفيساً في موضوع التنزيل بثه في مقدمات كتابه، نقلت منها ما يخدم موضوع البحث سواء في التأصيل أو التطبيق.

3- تتبعت كلام ابن عاشور في تفسيره للآيات التي يغلب فيها تنزيل المفسرين على الواقع، أو التي لها علاقة وثيقة بمسألة التنزيل مثل سبب النزول وآيات السنن الكونية والاجتماعية وآيات الإعجاز والمقاصد وغيرها.

ثالثاً: اجتهدت في استنباط المسائل المتعلقة بالبحث، وصنفت المواضيع التي وقفت عليها حسب دلالاتها وموضوعاتها، تأصيلاً وتطبيقاً في القضايا المختلفة.

رابعاً: عرّفت بموضوع البحث وأهميته، وعرّفت بإيجاز بالإمام ابن عاشور -رحمه الله-  
خامساً: استنبطت المعالم العامة لمنهج ابن عاشور رحمه الله في مسألة تنزيل النص على الواقع.

سادساً: اجتهدت في حصر أغلب القضايا والموضوعات التي نزل فيها ابن عاشور النص القرآني على الواقع.

سابعاً: وثقت كلام ابن عاشور وغيره ممن نقلت عنهم نصاً أو بالمعنى في هامش كل صفحة بذكر عنوان الكتاب والصفحة. ثم ذكرت معلومات المرجع كاملة في قائمة المصادر والمراجع.

ثامناً: ختمت البحث بأبرز النتائج والتوصيات، ثم وضعت فهرس المصادر والمراجع.

#### خطة البحث:

قسمت خطة البحث إلى مقدمة ومبحثين كالآتي:

المبحث الأول: الدراسة النظرية، وتحوي مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بمفردات العنوان وبالإمام ابن عاشور -رحمه الله-.

المطلب الثاني: معالم منهج الإمام ابن عاشور -رحمه الله- في تنزيل النص القرآني على الواقع.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية، وتحتوي مطلبين:  
المطلب الأول: أبرز القضايا والموضوعات التي نزل ابن عاشور الآيات عليها.  
المطلب الثاني: أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي .

#### المبحث الأول: الدراسة النظرية

في هذا القسم النظري من البحث أعرف بمفردات العنوان، وأترجم للإمام ابن عاشور رحمه الله، ثم أبين ضوابط ومعالم منهجه في تنزيل النص القرآني على الواقع.

المطلب الأول: التعريف بمفردات العنوان وبالإمام ابن عاشور رحمه الله

أولاً: التعريف بمفردات العنوان وهي كالاتي: التنزيل، النص، القرآن، الواقع، الأثر، الإصلاح، الاجتماعي.

- (تنزيل): "النون والزاء واللام كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على هُبوب شيءٍ ووقوعه، والتنزيل: ترتيب الشيء ووضع منزله"<sup>(1)</sup>. واستخدم المعاصرون كلمة "تطبيق" بمعنى تنزيل.

- (النص): في اللغة: "النون والصاد أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على رَفَعٍ وارتفاعٍ وانتهاءٍ في الشيء، منه قولهم نصَّ الحديث إلى فلان: رَفَعَهُ إليه"<sup>(2)</sup>، وفي لسان العرب: "كل ما أُظهِر فقد نُصّ. وقال عمرو بن دينار ما رأيت رجلاً أنص للحديث من الزهري أي أرفع له وأسند، وأصل النص: أقصى الشيء وغايته، ثم سمي به ضرب من السير سريع، والنصّ التوقيف، والنصّ التعيين على شيء ما، ومنه قول الفقهاء: نصُّ القرآن ونصّ السنّة أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام"<sup>(3)</sup>.

والنص اصطلاحاً: عرفه الجرجاني: "ما لا يحتمل إلاّ معنئ واحدًا وقيل ما لا يحتمل التأويل، وقيل هو ما زاد وضوحاً على الظاهر لمعنى في المتكلم وهو سوق الكلام لأجل المعنى"<sup>(4)</sup>.

وقد ذكر التهانوي أن النص له معان متعددة وهي:

1- كل ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة ظاهراً أو نصاً او مفسراً، حقيقة أو مجازاً عاماً أو خاصاً.

2- والنص بمعنى الظهور.

(1) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (417/5).

(2) المرجع السابق، (356/5).

(3) لسان العرب، لابن منظور (98-97/7).

(4) التعريفات، للجرجاني (309).

3- ما لا يتطرق إليه احتمال أصلاً.

4- ما لا يتطرق إليه احتمال مقبول يعضده دليل.

5- الكتاب والسنة أي ما يقابل الاجماع والقياس<sup>(1)</sup>.

- (القرآن): مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٥٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ يُرِيدُ أَنْ يُخَوِّفَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله، ويسمى الكتاب والقرآن والفرقان والذكر والتزويل، ويعرّف بأنه: كلام الله المعجز، المنزل على النبي محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته<sup>(2)</sup>.

والمقصود بالنص القرآني: ما يختص بما هو قطعي الثبوت وقطعي الدلالة في الثوابت؛ لأن فهم النص ضروري لإنزال أحكامه منازلها، وهو أمر لا مناص منه مع أي نص من النصوص قطعية الدلالة والثبوت.

- (الواقع): اسم فاعل للفعل وقع، ويدل على سقوط شيء، تقول: وقع الشيء ووقعا فهو واقع<sup>(3)</sup>.

الواقع في الاصطلاح: عرفه عبدالمجيد النجار أنه: عبارة عن السنن الإلهية والأفعال الإنسانية الحاصلة في الزمن المعاصر، وهذا الواقع هو الذي يراد تنزيل الآيات عليه وتوجيه بحسبها<sup>(4)</sup>.

وبناء على ذلك فالمقصود من تنزيل النص القرآني على الواقع: إحلال معنى الآيات القرآنية ومطابقتها على ما يناسبها من الأحداث والوقائع الكونية والإنسانية.

- (الأثر) الهمزة والثاء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي<sup>(5)</sup>. ويطلق على النتيجة، أو الأمر الحاصل من الشيء، والآثار: هي اللوازم المعللة بالشيء، أو جملة الأمور التي تنتج عن الشيء المسبب لها<sup>(6)</sup>.

- (الإصلاح) في اللغة من أصلح يصلح إصلاحاً، والصالح ضد الفساد<sup>(7)</sup>، ومادة صلح تعود في جملتها إلى استقامة الشيء واعتداله، واستقامة الإنسان على الأخلاق الفاضلة، والنهي عن ضدها من الانحراف والفساد.

(1) انظر: كشاف اصطلاحات العلوم وال فنون، للتهاوني، (1/1695).

(2) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، لعبدالعظيم الزرقاني (ص 14-19).

(3) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (6/102).

(4) انظر: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، لعبدالمجيد النجار، (ص120).

(5) مقاييس اللغة، لابن فارس (1/75).

(6) انظر: التعريفات، للجرجاني (ص23).

(7) مقاييس اللغة، لابن فارس (3/236).

وعرفه الألوسي بأنه: (الإتيان بما ينبغي، والاحتراز عما ينبغي<sup>(1)</sup>)، وعرفه ابن باديس بأنه: (إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد<sup>(2)</sup>)، ومن معانيه في القرآن الكريم ما يقابل الفساد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

- (الاجتماعي): مصدر اجتمع وأصله جمع، ومنه الجماعة والمجتمع ويعني: جماعة من الناس تربطها روابط ومصالح مشتركة وعادات وتقاليد وقوانين واحدة<sup>(3)</sup>.

فالمراد بأثر التنزيل في الإصلاح الاجتماعي: أي الأمور التي تنتج عن تطبيق آيات القرآن الكريم على الواقع الاجتماعي، وتكون سبباً في حصولها، ولها دور في استقامة الفرد وصلاح المجتمع.

ويعرّف تنزيل النص القرآني على الواقع باعتباره مركباً كالآتي:

- معالجة الوقائع والأحداث من خلال كلام الله تعالى في كل عصر وزمن، لمشابتها بحوادث ووقائع عصر التنزيل التي من أجلها نزل بعض النص القرآني الكريم<sup>(4)</sup>.

- "مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية"<sup>(5)</sup>.

وبناء على ما سبق يتضح أن المقصود بتنزيل النص القرآني على الواقع هو تطبيق آيات القرآن الكريم على السنن الكونية والبشرية، أو تصوير ما تصدق عليه الآية من الأحداث والوقائع الجارية في عصر المؤلف، كما يتبين من خلال التعريفين السابقين أن أركان التنزيل ثلاثة: النص، والواقع، والمنهج، كما أن التنزيل قد يكون تاماً أو جزئياً، وقد يكون موافقاً أو مخالفاً لمعنى الآية.

وقد تبين من خلال البحث في مفهوم تنزيل النص على الواقع قلة من كتب في تأصيل هذه القضية، وتقصير العلماء والباحثين في بيان علم التنزيل تأصيلاً وتطبيقاً، ولعل هذا الملتقى يسد هذه الثغرة العلمية ويجلي فروعها النظرية والتطبيقية.

ثانياً: التعريف بالإمام ابن عاشور رحمه الله.

نسبه وأسرته:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد ابن عاشور رحمه الله، وأمه: فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب ابن محمد الطيب بن محمد بو عتور.

(1) روح المعاني، الألوسي(214/7).

(2) مجالس التنكير، لابن باديس (1/231).

(3) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، 1/396.

(4) تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، لعبد العزيز الضامر، (ص 40).

(5) المرجع السابق، (ص33).

ويعود أصل أسرته (آل عاشور) إلى عهد ازدهار الحضارة الأندلسية ببلد الأندلس، ومنها انتقلت إلى بلاد المغرب 1030هـ/1620م، ثم إلى تونس في حدود سنة 1060هـ/1648م. وكان أول من دخلها من أفراد هذه الأسرة الشيخ الصالح الشريف أبو عبد الله محمد بن عاشور الحسيني بعد خروج والده من الأندلس فأراً بدينه من القهر والتنصير، ومن سلالة آل عاشور البارزين والده محمد بن عاشور، وهو وإن لم تكن له آثار علمية إلا أنه قد برز في ميدان المسؤوليات الوظيفية؛ فتولى رئاسة مجلس دائرة جمعية الأوقاف، فأحسن إدارتها.

وتقلد ابن عاشور مناصب مهمة: كالقضاء والإفتاء والتدريس والإشراف على الأوقاف الخيرية والنظارة على بيت المال والعضوية بمجلس الشورى، وله العديد من المؤلفات المطبوعة والمخطوطة امتاز فيها بتحرير المسائل وتدقيقها، والميل إلى الاستقلال في الرأي في كثير من مباحثه العلمية.

ومن أبرز شيوخه الشيخ سالم بوحاجب<sup>(1)</sup>، وجده ومربيه محمد العزيز بوعتور الذي كثيراً ما يتردد اسمه في مؤلفات الشيخ ابن عاشور رحمه الله، وقد تتلمذ على يديه نخبة من رجال الفكر والثقافة أصبحوا فيما بعد من شيوخ الزيتونية وعلمائها، وأولهم وأشهرهم على الإطلاق، ابنه العلامة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور رحمه الله، والشيخ الدكتور محمد الحبيب بلخوجة رحمه الله<sup>(2)</sup>.

#### أشهر مؤلفاته:

اعتنى الشيخ ابن عاشور رحمه الله بأهميات العلوم الإسلامية وبرع فيها، فتنوعت مؤلفاته متجاوزة الأربعين مصنفاً من أهمها ما يأتي:

1- تفسير "التحرير والتنوير" المسمى بـ "تحرير المعنى الشديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد"، يقع في 30 جزءاً، وقد حوى التحاليل اللغوية الدقيقة والاجتهادات المعمقة والترجيحات القيمة، جمع فيه ما في التفاسير ثم أضاف إلى المعرفة زاداً وضح به مراد الله تعالى، ويعد أهم هذه الآثار وأشهرها على الإطلاق.

2- كتاب "كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ"، و"النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح للبخاري"؛ مما يدل على حفظ الشيخ لعلم الحديث النبوي، واهتمامه بأحاديث النبي ث ونقدها نقد العارف بأحوال علم المصطلح في الحديث.

3- "مقاصد الشريعة"، ويعد فريداً في بابها من حيث التوسع والشمول للكشف عن

(1) هو: سالم بن عمر بوحاجب البنبلي؛ ولد ببنبلة عام 1244هـ، فقيه مالكي، محقق، لغوي أديب شاعر، كان من أعلام عصره، تولى التدريس بجامع الزيتونة فكانت مدة تدريسه أكثر من ستين سنة، كما نصب للفتيا وعُين كبيراً لأهل الشورى المالكية، من مؤلفاته: "نقاربر على شرح الأشموني على الخلاصة الألفية لابن مالك"، و"ديوان خطبه المنبرية"، توفي بالمرسى سنة 1342هـ، ودفن بمقبرة الزلاج. انظر: الأعلام، للزركلي، (71/3)، وتراجم المؤلفين التونسيين، لمحفوظ، (81-78/2).

(2) انظر: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وأثاره، للغالي، (41-42)، والأعلام، للزركلي، (6/174)

أبعاد الغاية المروم تحقيقها وتقريرها، وقد عملت جلّ الجامعات الإسلامية على اعتماده، وعُدَّ الشيخ فيه مجددًا، بل مجتهدًا أضاف إلى المعرفة الشرعية بابًا من أهم أبوابها، مسجلًا به مرحلة هامة من أهم مراحل هذا العلم، متجاوزًا بذلك أصحاب هذا الفن، كالشاطبي في "الموافقات"، وكان فيه مثالًا لتوظيف المعرفة التراكمية والانطلاق منها لتأسيس معرفة جديدة معتمدة عليها متميزة عنها.

4- "أليس الصبح بقريب"، ويعد من الأعمال الجليلة للإمام ابن عاشور رحمه الله مع كونه كتبه في بداية حياته إلا أنه كان ذا نظرة عامة شاملة في مجال الإصلاح التربوي، وقد جسّمه ميدانيًا في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، يعد وثيقة لحياة الطالب وفيه وصف بليغ لمعاشه، فوصف دروسه وسكنه وأسباب تأخره، ووجوه إصلاحه، فحق للمربين تأملها والإفادة منها.

5- "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، وقد عالج الشيخ ابن عاشور رحمه الله فيه قضايا متعددة؛ إذ تطرق فيه إلى خصائص هذا الدين في إصلاح الأفراد، وفي القسم الثاني عالج الإصلاح الاجتماعي وذكر أصولًا مهمة ومبادئ قويمه قام عليها هذا الدين العظيم.

6- "نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق"، ويعد من أبرز الكتب التي اتضحت فيها آراء الإمام السياسية -رغم صغر حجمه- فتحدث فيه عن الخلافة والحكومة في التاريخ، والوحدة الدينية والعرب.

ولديه غيرها بضعة وثلاثون مؤلفًا ما بين مطبوع ومخطوط والتي امتازت بكثير من المميزات والتبويبات، والتي لم تطغَ كثرتها على جودتها؛ إذ إنه كثيرًا ما تؤثر كثرة التأليف في مجال ما على جودتها وحصافتها فكيف بمجالات متنوعة وعلوم متفرقة<sup>(1)</sup>.

**وفاته:**

بعد عمر طويل حافل بالعمل الصالح المثمر والإنتاج العلمي الغزير، قارب القرن من الزمان، انتقل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله إلى جوار ربه يوم الأحد 13 رجب 1393هـ الموافق 12 أغسطس 1973م، ودفن في مقبرة الزلاج من مدينة تونس<sup>(2)</sup>.

**المطلب الثاني: منهج ابن عاشور رحمه الله في تنزيل النص القرآني على الواقع**  
اتخذ ابن عاشور منهجًا خاصًا في التنزيل أثناء تفسيره لكلام الله تعالى. وأكد على ضرورة مراعاة الواقع وحالة المخاطب وعصره وأنها من أبرز المقاصد الأصلية التي يجب على المفسر العناية بها، فقال:

"السادس- من مقاصد القرآن-: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم

(1) انظر: من أعلام الزيتونة: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، للغالي، (19-20).

(2) انظر: الأعلام، للزركلي، (6/174).

إلى تلقي الشريعة ونشرها"<sup>(1)</sup> وقد تميز هذا المنهج بضوابط ومعالم، منها ما يأتي:

أولاً: ضوابط التنزيل عند ابن عاشور:

انطلق ابن عاشور في تأصيل قضية التنزيل وتطبيقها من خلال ضوابط عدة، منها على سبيل المثال:

الضوابط الأول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، حيث يعد من الضوابط والقواعد المهمة والركائز الأساسية في قضية التنزيل التي اعتمد عليها ابن عاشور رحمه الله وأشار لها في تفسيره، والأمثلة على ذلك من كلامه كثيرة، منها:

• قوله في بيان حكم التسمية على الذبيحة والحكمة منها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: "وربما كان المشركون في تحليلهم على المسلمين في أمر الذكاة يقتنعون بأن يسألوهم ترك التسمية، بحيث لا يُسمون الله ولا يسمون للأصنام، فيكون المقصود من الآية: تحذير المسلمين من هذا الترك المقصود به التموه، وأن يستغنى على الذبائح غير أسماء آلهتهم .

فإن اعتدنا بالمقصد والسياق، كان اسم الموصول مراداً به شيء معين، لم يذكر اسم الله عليه، فكان حكمها قاصراً على ذلك المعين، ولا تتعلق بها مسألة وجوب التسمية في الذكاة، ولا كونها شرطاً أو غير شرط بله حكم نسيانها. وإن جعلنا هذا المقصد بمنزلة سبب للترؤل، واعتدنا بالموصول صادقاً على كل ما لم يذكر اسم الله عليه، كانت الآية من العام الوارد على سبب خاص، فلا يخص بصورة السبب، وإلى هذا الاعتبار مال جمهور الفقهاء المختلفين في حكم التسمية على الذبيحة"<sup>(2)</sup>.

• وفي المقدمة الرابعة من كتابه التحرير والتنوير ذكر ابن عاشور أن خطاب القرآن عام للعرب وغيرهم، مما يبين تأكيده على قاعدة العبرة بعموم اللفظ، حيث فقال: "فيجب أن تعلموا قطعاً أنه ليس المراد من خطاب العرب بالقرآن أن يكون التشريع قاصراً عليهم أو مراعيًا لخاصة أحوالهم، بل إن عموم الشريعة ودوامها وكون القرآن معجزة دائمة مستمرة على تعاقب السنين ينافي ذلك، نعم إن مقاصده تصفية نفوس العرب الذين اختارهم كما قلنا لتلقي شريعته وبثها ونشرها، فهم المخاطبون ابتداءً قبل أمة الدعوة فكانت أحوالهم مرعية لا محالة، وكان كثير من القرآن مقصوداً به خطابهم خاصة، وإصلاح أحوالهم، قال تعالى: ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ وَلَا قَوْمُكُمْ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (وقال) ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُكُمُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ ﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا مِنْهُمْ ﴾ (لكن ليس ذلك بوجه للاقتصار على أحوالهم).

(1) التحرير والتنوير (1/ 41).

(2) المرجع نفسه، (8/ 39-40).

• ومما يبين هذه القاعدة قوله: "ومعنى كون أسباب النزول من مادة التفسير، أنها تعين على تفسير المراد، وليس المراد أن لفظ الآية يقصر عليها؛ لأن سبب النزول لا يخصص"<sup>(1)</sup>.

• وقوله أيضا: "الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ (كمثل الخطاب في) ﴿وَأَتُوا آلِيَّكُمْ﴾ (هو لعموم الناس المخاطبين بقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبِّكُمْ﴾ [الحج: 1] ليأخذ كل من يصلح لهذا الحكم حظّه من الامتثال"<sup>(2)</sup>.

• ومن الأمثلة أيضا قوله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نِصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نِصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ "فالنهي عن التمتي وتطلع النفوس إلى ما ليس لها جاء في هذه الآية عامًا، فكان كالتنزيل للأحكام السابقة لسد ذرائعها وذرائع غيرها، فكان من جوامع الكلم في درء الشرور"<sup>(3)</sup>.

فهذه الشواهد والأمثلة وغيرها من كلام ابن عاشور تبين مدى عنايته بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، في تنزيل النص القرآني على الواقع.

**الضابط الثاني:** إن تفسير القرآن مرتبط بفقهِ المقاصد: وهذا من الضوابط والقواعد المهمة في تنزيل النص على الواقع، لذا اهتم ابن عاشور بهذه القاعدة وأكد عليها في أكثر من موضع من كلامه:

• ذكر ابن عاشور رحمه الله في المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر، وأن معرفة المقاصد والعلم بها من أهم غايات المفسر، بل من أهم أدواته في التفسير، فقال: "تتطلعون بعد إلى الإفصاح عن غاية المفسر من التفسير، وعن معرفة المقاصد التي نزل القرآن لبيائها حتى تستبين لكم غاية المفسرين من التفسير على اختلاف طرائقهم، وحتى تعلموا عند مطالعة التفاسير مقادير اتصال ما تشتمل عليه، بالغاية التي يرمي إليها المفسر فتزنوا بذلك مقدار ما أوفى به من المقصد، ومقدار ما تجاوزه، ثم ينعطف القول إلى التفرقة بين من يفسر القرآن بما يخرج عن الأغراض المرادة منه، وبين من يفصل معانيه تفصيلا، ثم ينعطف القول إلى نموذج مما استخرجه العلماء من مستنبطات القرآن في كثير من العلوم"<sup>(4)</sup>.

**الضابط الثالث:** إن القرآن نزل منجما حسب الأحداث والوقائع:

اعتنى ابن عاشور بقضية نزول القرآن منجما حسب الوقائع والأحداث فجعل لها اعتبارا عند تنزيل الآيات على الواقع، ومن الأمثلة على ذلك:

• قوله: "وجملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ استئناف بياني لحكمة إذافتهم العذاب الأدنى في الدنيا بأنه لرجاء رجوعهم، أي رجوعهم عن الكفر بالإيمان. والمراد: رجوع من يمكن رجوعه

(1) التحرير والتنوير، (24/1).

(2) المرجع السابق، (234/4).

(3) المرجع السابق، (28/5).

(4) المرجع السابق، (38/1).

وهم الأحياء منهم. وإسناد الرجوع إلى ضمير جميعهم باعتبار القبيلة والجماعة، أي لعل جماعتهم ترجع. وكذلك كان فقد آمن كثير من الناس بعد يوم بدر وبخاصة بعد فتح مكة، فصار من تحقق فهم الرجوع المرجو مخصوصين من عموم ﴿ الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ [السجدة: 20]، فبقي ذلك الوعيد للذين ماتوا على الشرك، وهي مسألة الموافاة عند الأشعري<sup>(1)</sup>.

**الضابط الرابع:** التحذير من الخوض في تفسير الآيات بلا علم: من معالم منهج ابن عاشور ومن الضوابط المهمة في قضية التنزيل عنده النبي عن الخوض في التفسير بلا علم، لما يترتب عليه من أثر في صحة التنزيل، حيث يقول رحمه الله: "فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات على طريقة كتب التفسير ومنهم من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركاً معنى الآية جانبا، جانبا من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالبا، وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض لهذا العمل العلمي الجليل فيجب على العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره، وأن يرد الأشياء إلى أربابها"<sup>(2)</sup>.

**الضابط الخامس:** إنَّ مشاهدة الواقع تعين على تفسير الآيات القرآنية: من ضوابط وقواعد التنزيل عند ابن عاشور مشاهدة الواقع والنظر في سنن الله الكونية.

عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَتَّوَعَّرَ لَهُمْ وَلَا يُهْدِيهِمْ طَرِيقًا ﴿٦٥﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٦٦﴾ ﴾. قال رحمه الله: "ومعنى نفي أن يهديهم طريقاً: إن كان طريقاً يوم القيامة فهو واضح: أي لا يهديهم طريقاً بوصولهم إلى مكان إلا طريقاً يوصل إلى جهنم. ويجوز أن يراد من الطريق الآيات في الدنيا، كقوله: ﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفاتحة: 6]. فنفي هديهم إليه إنذار بأن الكفر والظلم من شأنهما أن يخيماً على القلب بغشاوة تمنعه من وصول الهدى إليه، ليحذر المتلبس بالكفر والظلم من التوغّل فيهما، فلعله أن يصبح ولا مخلص له منهما. ونفي هدى الله أيأهم على هذا الوجه مجاز عقلي في نفي تيسير أسباب الهدى بحسب قانون حصول الأسباب وحصول آثارها بعدها. وعلى أي الاحتمالين فتوبة الكافر الظالم بالإيمان مقبولة، وكثيراً ما آمن الكافرون الظالمون وحسن إيمانهم، وآيات قبول التوبة، وكذلك مشاهدة الواقع، ممّا يهدي إلى تأويل هذه الآية.<sup>(3)</sup>

ثانياً: معالم منهج التنزيل عند ابن عاشور

تميز منهج ابن عاشور بمعالم عدة، لاسيما عند تنزيه آيات القرآن على الواقع، وفيما

(1) المرجع السابق، (21 / 233).

(2) المرجع السابق، (1 / 37).

(3) المرجع السابق، (6 / 47 - 48).

يأتي أذكر بعض هذه المعالم مع بيان شواهدا من كتاباته:

أ- لفت النظر إلى أحوال المخلوقات وواقعها عند تفسير الآيات: ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

• قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَتْ خَلْقُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ "ولا شك أن هذه الخلافة لا تتقوم إلا بالعلم أعني اكتساب المجهول من المعلوم وتحقيق المناسبة بين الأشياء ومواقعها ومقارنتها وهو العلم الاكتسابي الذي يدرك به الإنسان الخير والشر ويستطيع به فعل الخير وفعل الشر كل في موضعه ولا يصلح لهذا العلم إلا القوة الناطقة وهي قوة التفكير التي أجلي مظاهرها معرفة أسماء الأشياء وأسماء خصائصها والتي تستطيع أن تصدر الأضداد من الأفعال لأن تلك القوة هي التي لا تنحصر متعلقاتها ولا تقف معلوماتها كما شوهد من أحوال النوع الإنساني منذ النشأة إلى الآن وإلى ما شاء الله تعالى"<sup>(1)</sup>.

• وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَقَدْ لَبِثْنَا عَلَىٰ عِزِّهِمْ عَلَىٰ بَعْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال ابن عاشور: "فلا جرم أن ذلك يقتضي تفوق مخلوقات بعض الآلهة على مخلوقات بعض آخر بعوارض من التصرفات والمقارنات لازمة لذلك، لا جرم يستلزم ذلك كله لازمين باطلين...وثاني: اللازمين أن تصير مخلوقات بعض الآلهة أوفر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك من آثار الأعمال النفسانية وآثار الأقطار والحوادث كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد، فلا جرم أن ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته على الإله الذي تنحط مخلوقاته"<sup>(2)</sup>.

ب- أنه يبدأ في تفسير الآية ثم يعقبه بالتنزيل إن كان فيها ما يناسب تنزيهه على الواقع:

• ومثاله ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ حيث بدأ في تفسير الآية وما تشمل عليه من معان: "واتقوا الله وصية جامعة للراجعين من الحج أن يراقبوا تقوى الله في سائر أحوالهم وأماكنهم ولا يجعلوا تقواه خاصة بمدة الحج) ثم رأى مناسبة تنزيهها على واقعه وعصره بقوله: (كما كانت تفعله الجاهلية فإذا انقضى الحج رجعوا يتقاتلون ويغيرون ويفسدون وكما يفعله كثير من عصاة المسلمين عند انقضاء رمضان"<sup>(3)</sup>.

(1) المرجع السابق، (419 / 1).

(2) المرجع السابق، (115 / 18).

(3) المرجع السابق، (264 / 2).

• ومثاله أيضا ما جاء عند قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَلْوَلَاءُ مَعَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ حيث بدأ في تفسير الآية وما تشمل عليه من معان ثم رأى مناسبة تنزيلها على واقعه وعصره بقوله: (وكثيراً ما عرضت للمسلمين وغيرهم شبه وأغلاط في هذا المعنى، صرفتهم عن تطلّب الأشياء من مظانّها وقعدت بهم عن رفو أخلالهم في الحياة الدنيا أو غرّتهم بالتفريط فيما يجب الاستعداد له، كل ذلك للتخليط بين الأحوال الدنيوية الأخروية وبين السنن الكونية الدنيوية، كما عرض لابن الراوندي من حيرة الجهل في قوله :

كَمْ عَالِمٍ عَالَمٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلِيٍّ جَاهِلِيٍّ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقاً  
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ الْعَالَمَ النَّحِيرَ زَنْدِيقاً<sup>(1)</sup>

ج- أنه اهتم كثيرا بقضايا التنزيل الاجتماعي، لجهل الناس وتفريطهم فيها، مثل الفساد والخمر والربا والزنا واللواط وأكل أموال اليتامى.

ومثاله:

• عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا الْأَمْوَالَ الْأَمْوَالَ... ﴾ قال ابن عاشور: المقصود بيان الحال التي يمنع فيها السفيه من ماله، والحال التي يؤتى فيها ماله، وقد يقال كان مقتضى الظاهر على هذا الوجه أن يقدّم هنالك حكم منع تسليم مال اليتامى لأنه أسبق في الحصول، فينتج لمخالفة هذا المقتضى أن نقول قدّم حكم التسليم، لأنّ الناس أحرص على ضده، فلو ابتدأ بالنهي عن تسليم الأموال للسفهاء لآخذها الظالمون حجة لهم، وتظاهروا بأنهم إنّما يمنعون الأيتام أموالهم خشية من استمرار السفه فيهم، كما يفعله الآن كثير من الأوصياء والمقدمين غير الأتقياء، إذ يتصدّون للمعارضة في بينات ثبوت الرشد لمجرد الشغب وإملاط المحاجير من طلب حقوقهم .

• وعند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾. قال ابن عاشور: "وخصّ الله بالذكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعاً مهماً يكثر أن يغفل الناس عنه ويتهاونوا بحقه أو بفضله، وهو إيتاء ذي القربى فقد تقرّر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد وإتقاء شره، كما تقرّر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعود التساهل في حقوقه . ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من مواليتهم، قال تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [سورة النساء: 2]، وقال: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ [سورة الإسراء: 26]، وقال: ﴿ وَمَا يَتْلُ عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى الْإِنْسَاءُ ﴾ [سورة النساء: 127] الآية . ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحمّدة وحسن الذّكر بين الناس . ولم يزل هذا الخلق متفشياً في الناس حتى في

(1) المرجع السابق، (255 / 7).

الإسلام إلى الآن ولا يكثرثون بالأقربين<sup>(1)</sup>.

د- من معالم منهج ابن عاشور أنه استخدم ألفاظ التنزيل غير المباشر، أو ما يسمى بالتلميح والإشارة، كأن يقول بعد تفسير الآية (توجيه واستنباط) أو يقول: فأين هذا الوصف من...؟ ألم تر...؟ فتدبر في هذه المعاني! ومن تأمل ونظر وحزم، ومن تأمل بإنصاف وجد، فيجد ربنا أن ننظر وغيرها من ألفاظ الإشارة أو التنزيل غير المباشر.  
ومن الأمثلة على ذلك:

• في تفسير سورة الفاتحة قال: "وصف بأنه مَلِك يوم الدين وهو وَصَف بما هو أعظم مما قبله لأنه ينبت عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء الذي هو أول أيام الخلود، فَمَلِك ذلك الزمان هو صاحب المُلْك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت مُلكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، فأين هذا الوصف من أوصافِ المبالغة التي يفرضها الناس على أعظم الملوك مثل مَلِك الملوك (شَاهَانُ شَاه) ومَلِك الزمان ومَلِك الدنيا (شَاهُ جَهَان) وما شابه ذلك<sup>(2)</sup>."

• ولما ذكر معنى ضعف الحيوية وضعف الممات في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْتَنَا لَقَد كِدْتُمْ تَرَكُّنَ إِلَهِمَّ سَيِّئًا قَلِيلًا ۝ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝﴾<sup>(3)</sup> حث على تدبر هذا المعنى فقال: "أن مصائب الدنيا وأرزائها مسببة على أسباب من الأغلاط والأخطاء فلا يؤثر في التفادي منها حسن النية إن كان صاحبها قد أخطأ وجه الصواب، فتدبر في هذه المعاني تدبر ذوي الألباب، ولهذا خولف التعبير المعتاد استعماله لعذاب الآخرة. وعبر هنا بضعف الحياة وضعف الممات"<sup>(3)</sup>.

• ومنها أيضا الإشارة إلى التنزيل على الواقع بقوله ألم تر: "هكذا كان شأن الذكر والأنثى فما ولدا من الأولاد نشأ مثل نشأتها في الأحوال كلها، ألم تركيب اهتدى أحد بني آدم إلى دفن أخيه من مشاهدة فعل الغراب الباحث في الأرض فكانت الاستنباط الفكري والتقليدُ به أسَّ الحضارة البشرية<sup>(4)</sup>."

• قال رحمه الله: (ومن تأمل بإنصاف وجد متانة معنى قوله: (أني ممدكم بألف من الملائكة (في كون ( أن ) تفسيرية، دون كونها مجرورة بحرف جر محذوف. مع أن معنى ذلك الحرف غير بين)<sup>(5)</sup>).

• وقال أيضا: "فالزنى مثنة لإضاعة الأنساب ومَظَنَّةٌ للقتال والتهاجر فكان جديراً

(1) التحرير والتنوير (14 / 256).

(2) المرجع السابق، (1 / 177).

(3) المرجع السابق، (15 / 177).

(4) المرجع السابق، (2 / 303).

(5) المرجع السابق، (9 / 275).

بتغليظ التحريم قصداً وتوسلاً . ومن تأمل ونظر جزم بما يشتمل عليه الزنى من المفسد ولو كان المتأمل ممن يفعله في الجاهلية فقيحه ثابت لذاته، ولكن العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه، فلما أيقظهم التحريم لم يبق للناس عذر<sup>(1)</sup>.

• عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وبعد أن ذكر معناها قال رحمه الله: "فيجدر بنا أن ننظر الآن فيما تضمنته هذه الآية من المعنى في تاريخ ظهور الشرائع وفي أسباب ذلك"<sup>(2)</sup>.

هـ- غالباً يستخدم لفظ التشبيه في تنزيل الآيات على الواقع، مثل: (كما يفعله المرابي الناصح... كما يفعل المستشار... كما يفعل التلميذ، كما يفعل بعض الجهال والعصاة، كما شوهد في عصرنا... الخ) ومن الأمثلة على ذلك قوله:

• "ليعلموا أن الإغلاظ عليهم ليس إلا حرصاً على صلاحهم وأنه غني عنهم كما يفعله المرابي الناصح حين يزر أو يوبخ فيرى انكسار نفس مرياه فيجبر خاطره بكلمة لينة ليريه أنه إنما أساء إليه استصلاحاً وحباً لخيره فلم يترك من رحمته لخلقه حتى في حال عتوهم وضلالهم وفي حال حملهم إلى مصالحتهم"<sup>(3)</sup>.

• ﴿ وَتَحْنُ سُجُوحٌ يَحْتَمِلُكَ ﴾ (يحتمل معنيين أحدهما أن يكون الغرض منه تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهاماً عليهم فيما أشاروا به كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أسد منه رأياً وأرجح عقلاً فيشير ثم يفوض كما قال أهل مشورة بلقيس إذ قالت: ﴿ أَقُوْنِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوهُ قُوْوَةٌ وَأَوْلُوهُ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي الرأي أن نحاربه ونصده عما يريد من قوله: ﴿ وَأَقُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: 31] ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: 32، 33]، وكما يفعل التلميذ مع الأستاذ في بحثه معه ثم يصرح بأنه مبلِّغ علمه، وأن القول الفصل للأستاذ، أو هو إعلان بالتنزيه للخالق عن أن يخفى عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم، وبراءة من شائبة الاعتراض، والله تعالى وإن كان يعلم براءتهم من ذلك إلا أن كلامهم جرى على طريقة التعبير عما في الضمير من غير قصد إعلام الغير، أو لأن في نفس هذا التصريح تبركاً وعبادة، أو إعلان لأهل الملا الأعلى بذلك<sup>(4)</sup>.

و- الإشارة إلى التنزيل بقوله: (وقد كانت العرب تفعل كذا...) ومن الأمثلة على ذلك:

• عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّى حَتَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ قال رحمه الله: "وقد كانت العرب تختم على قوارير الخمر ليصلحها انحباس

(1) المرجع السابق، (91 / 15).

(2) المرجع السابق، (303 / 2).

(3) المرجع السابق، (324 / 1).

(4) المرجع السابق، (404 / 1).

الهواء عنها وتسلم من الأقدار في مدة تعيقها"<sup>(1)</sup>

ز- أنه يستخدم أحيانا في تنزيل الآيات على الواقع عبارة: وفي عصرنا هذا أو كما شوهد في عصرنا.. الخ، ومن الأمثلة على ذلك :

• في قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ قال: (وفي عصرنا أصبح الأطباء يعترضون لبعض الصبيان بالإرضاع الصناعي، وهم مع ذلك مجمعون على أنه لا أصلح للصبي من لبن أمه"<sup>(2)</sup>).

• ومن ذلك أيضا عند تفسيره لمعنى القوة في قوله تعالى: ﴿ وَاعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ قال: "والقوة كمال صلاحية الأعضاء لعملها، وتطلق القوة مجازاً على شدة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق أيضاً على سبب شدة التأثير، فقوة الجيش شدة وقعه على العدو، وقوته أيضاً سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا، فهو مجاز مرسل بواسطتين، فأتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوة في جيوش العصور الماضية، وأتخاذ الدبابات والمدافع والطائرات والصواريخ من القوة في جيوش عصرنا"<sup>(3)</sup>.

• وقال أيضا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ وإنما كانت الريح التي أصابت عاداً بهذه القوة بسبب قوة انضغاط في الهواء غير معتاد فإن الانضغاط يصير الشيء الضعيف قوياً، كما شوهد في عصرنا أن الأجسام الدقيقة من أجزاء كيميائية تسمى الدرة تصير بالانضغاط قادرة على نسف مدينة كاملة، وتسمى الطاقة الذرية، وقد نسف بها جزء عظيم من بلاد اليابان في الحرب العامة"<sup>(4)</sup>.

ح- تقريب المعنى وربطه بالواقع عن طريق ذكر الاسم المعاصر للمسمى أو الموصوف في القرآن أو ذكر أوصافه وأثاره كأسماء الأماكن، ومن ذلك ما يأتي:

• عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى شِمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ قال رحمه الله: "كانت مساكنهم بالججر بكسر الحاء وسكون الجيم بين الحجاز والشام، وهو المكان المسمى الآن مدائن صالح"<sup>(5)</sup>

• وعند قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْقًا ﴾ ذكر ابن عاشور أن ذلك الذي اندك منه لم يرجع، ولعل آثار ذلك الدك ظاهرة فيه إلى الآن"<sup>(6)</sup>.

• وقال في تفسير قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُو فِي عَيْنِ حَمَلٍ ﴾

(1) المرجع السابق، (254/1).

(2) المرجع السابق، (431/2).

(3) المرجع السابق، (55/10).

(4) المرجع السابق، (259/24).

(5) المرجع السابق، (216/8).

(6) المرجع السابق، (93/9).

عين حمنة... وفيها منابع النفط الآن ولم يكن معروفاً يومئذ" (1).

• وقال أيضاً: "وما زالت البندقية إلى الآن مصدر دقائق صنع الزجاج على اختلاف أشكاله وألوانه" (2).

• "فاليقوبية، ويسمّون الآن (أرثوذكس)، ظهرُوا في أواسط القرن السادس المسيحي" (3) وغيرها من الشواهد والأمثلة الكثيرة التي اعتنى ابن عاشور ببيائها وتنزيلها على الواقع من خلال الاسم أو الوصف.

ط- أنه أحياناً يسمي التنزيل توسع المفسر في التفسير:

أشرت سابقاً في تعريف التنزيل أن بعض المعاصرين يسميه تطبيقاً وبعضهم يسميه تنزيلاً، لكن ظهري من خلال كلام ابن عاشور أنه أحياناً يسمي التنزيل توسع المفسر في التفسير، وظهر ذلك جلياً في تنزيه بعض الآيات على الواقع والاستطراد في التنزيل؛ ولاشك أن هذه المعرفة الواسعة والإشارة العميقة تنم عن عقلية استقصت المعرفة من أوكارها، وهكذا فإن المتتبع لمؤلفات الشيخ ابن عاشور رحمه الله يجد أنه ما فتى يتحدث في كل فن ولون؛ يستدل ويوضح ويوجه ويبين بكل ما أوتي من علم ومعرفة وذوق. وكتبه حافلة بتاريخ العلوم وفوائدها على اختلاف فنونها وتصنيفاتها، مما يدل على سعة اطلاعه وعلو كعبه في العلوم فقد تكلم في الطب وعلم الجغرافيا والتاريخ واللغة والأدب والاقتصاد وعلم الطبيعيات وغيرها، ومن الأمثلة على ذلك: سعة علمه في اللغة: قوله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لَعَبْرَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 173] أي ما أعلن به أو نودي عليه بغير اسم الله تعالى، وهو مأخوذ من أهلّ إذا رفع صوته بالكلام ومثله استهل... وقيل مشتق من الهلال؛ لأنهم كانوا إذا رأوا الهلال نادى بعضهم بعضاً، وهو عندي من تلفيقات اللغويين وأهل الاشتقاق، ولعل اسم الهلال إن كان مشتقاً وكانوا يصبحون عند رؤيته وهو الذي اشتق من هلّ وأهلاً بمعنى رفع صوته؛ لأن تصاريف أهلاً أكثر، ولأنهم سمو الهلال شهراً من الشهرة (4). فاستدرك على أهل اللغة هذا الاشتقاق مُبدئاً حقيقة المعنى المراد، ومرجعاً إليه أصل الاشتقاق.

ي-التنبيه على أهمية شحذ الهمم في البحث عن موضوع معين:

قال ابن عاشور: "مراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيناً وتعبدياً بمعرفة مراده والاطلاع عليه فقال: ﴿كُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَذَرُوا أَكْبَابَهُمْ وَيَتَذَكَّرُوا أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ (سواء قلنا إنه يمكن الاطلاع على تمام مراد الله تعالى وهو قول علمائنا والمشاخي والسكاكي وهما من

(1) التحرير والتنوير، (16 / 26).

(2) المرجع السابق، (18 / 238).

(3) المرجع السابق، (6 / 57).

(4) المرجع السابق، (2/119-120).

المعتزلة، أم قال قائل بقول بقية المعتزلة إن الاطلاع على تمام مراد الله تعالى غير ممكن وهو خلاف لا طائل تحته إذ القصد هو الإمكان الوقوعي لا العقلي، فلا مانع من التكليف باستقصاء البحث عنه بحسب الطاقة ومبلغ العلم مع تعذر الاطلاع على تمامه.<sup>(1)</sup>

#### ك- توظيف النظريات الحديثة في التنزيل:

من معالم منهج الشيخ ابن عاشور رحمه الله في التنزيل أنه استخدام مختلف العلوم في خدمة رأيه وما يؤول إليه وما بظنه أنه يبين الأمر ويجليه؛ لذا فإنه قد يستعين بالنظريات الحديثة، من أمثلة ذلك استخدامه لنظرية غاليليو الإيطالي وذلك عند بيانه قول الله تعالى: ﴿ وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا حَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغِرَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ أَقْنَعٌ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ حَكِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: 88]، حيث قال: "إن الناس كانوا يحسبون أن الشمس تدور حول الأرض فينشأ من دورانها نظام الليل والنهار، ويحسبون الأرض ساكنة. واهتدى بعض علماء اليونان إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضي تقريباً وضياء النصف الآخر وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار، ولكنها كانت نظرية مرموقة بالنقد... وما تحققت هذه النظرية إلا في القرن السابع عشر بواسطة الرياضي (غاليلي) الإيطالي".<sup>(2)</sup>

وهذا يدل على مدى عناية ابن عاشور بضوابط التنزيل وقواعده، ومقدرته العلمية والمعرفية في تنزيل النصوص القرآنية على الواقع.

#### المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية

في هذا المبحث تناول أبرز القضايا التي نزل ابن عاشور الآيات عليها ثم أُبين أثر التنزيل في الإصلاح الاجتماعي

#### المطلب الأول: أبرز القضايا والموضوعات التي نزل ابن عاشور الآيات عليها

يعد ابن عاشور من أبرز من استخدم قضية التنزيل على واقعه لاسيما في تفسيره التحرير والتنوير؛ فقد احتوى على الكثير من التطبيقات والتنزيلات في موضوعات مختلفة أبرزها القضايا الإيمانية والاجتماعية؛ فقد كان واقعه يضح بالقضايا والأحداث الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية... فكان لا بد له من الرجوع إلى كتاب الله تعالى واستنطاق الآيات المناسبة لهذه الوقائع وتنزيلها عليها.

وفي هذا المبحث أذكر بعض القضايا والموضوعات التي نزل ابن عاشور الآيات عليها، ومنها الموضوعات الآتية:

(1) التحرير والتنوير، (1 / 39).

(2) المرجع السابق، (20/49-50).

## أولاً: الإيمانيات

اهتم ابن عاشور رحمه الله بتزليل الآيات على الواقع في مجال العقيدة والايمان والتوحيد ونبذ البدع والمعتقدات الباطلة<sup>(1)</sup> ومن الأمثلة على ذلك:

• قال ابن عاشور: "وقولهم: مَنْ اللهُ عَلَيْهِمْ (قالوه على سبيل التهكم ومجاراة الخصم، أي حيث اعتقد المؤمنون أن الله منّ عليهم بمعرفة الحق وحرّم صنائيد قريش، فلذلك تعجّب أولئك من هذا الاعتقاد، أي كيف يُظنّ أنّ الله يمنّ على فقراء وعبيد ويترك سادة أهل الوادي . وهذا كما حكى الله عنهم ) ﴿ وَآلُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31]. وهذه شنشنة معروفة من المستكبرين والطغاة . وقد حدث بالمدينة مثل هذا. روى البخاري أنّ الأقرع بن حابس جاء إلى رسول الله ع فقال : إتما بايعك سُرَاقُ الحجاجِ مِنْ أَسْلَمَ وَغِفَارُ وَمُزَيْنَةُ وَجُهَيْنَةَ فقال له رسول الله ع: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَتْ أَسْلَمُ وَغِفَارُ وَمُزَيْنَةُ وَجُهَيْنَةُ خَيْرًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي عَامِرٍ وَأَسَدٍ وَغُفَارَانَ أَخَابُوا وَخَسِرُوا (أي أخاب بنو تميم ومن غطف عليهم) فقال: نعم قال : فوالذي نفسي بيده إتهم لخير منهم<sup>(2)</sup> .

• وفي فتنة القول بخلق القرآن: ذكر ابن عاشور قول الشيخ أبو محمد بن أبي زيد في (الرسالة): (وإن القرآن كلامٌ الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفةٍ لمخلوق فينفد) ثم قال رحمه الله: "وقد نقشوا على أسطوانة من أساطين الجامع بمدينة سوسة هذه العبارة: (القرآن كلامٌ الله وليس بمخلوق) وهي ماثلة إلى الآن<sup>(3)</sup> .

• وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ..﴾ قال ابن عاشور في حكم تبليغ العلم وجواب السائل منزلا ذلك على عصره: (وجب على العالم إذا جلس إليه الناس للتعلم أن يلقي إليهم من العلم ما لهم

(1) مذهب ابن عاشور وعقيدته: المتأمل في مذهب ابن عاشور يجد أنه أشعري، سلفي، عقلاني المنهج؛ لأن المتتبع لسيرة الشيخ ابن عاشور رحمه الله يجد أنه يصحح في أكثر من موضع بأنه أشعري المعتقد؛ فعند تفسيره الهدى في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38] قال إن هذه الآية أسعد بمذهبننا أيها الأشاعرة من عدم وجوب الهدى كله على الله تعالى، انظر: التحرير والتنوير، (1/443). بيد أن حقيقة سيره على منهج الأشاعرة يتضح جله في أثناء بيانه آيات الصفات، ومع ذلك فإن المدقق لكتابات الشيخ ابن عاشور رحمه الله يجده لا يلتزم بمذهبه العقدي وإنما قد يقرب بينه وبين المذهب الصحيح كثيرًا، بله أنه يسير في جملة أبواب الاعتقاد على منهج السلف الصالح، ولعل هذا سببه أنه ابن بيئته لم يستطع التملص من مذهبه كافة وإنما في تضاعيف بيانه نجده قد حاد عنه، وعليه فإن الشيخ ابن عاشور رحمه الله أقرب إلى منهج أهل السنة والجماعة من مذهب الأشاعرة. وهم بدورهم أقرب الطوائف إلى المنهج الحق من بقية الفرق والمذاهب كما يقرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول: إن الأشاعرة وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة ونحوهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها المعتزلة والرافضة ونحوهم. انظر: بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية، (3/538).

(2) التحرير والتنوير، (7/254).

(3) المرجع السابق، (25/147).

مقدرة على تلقيه وإدراكه، فظهر بهذا أن الكتمان مراتب كثيرة وأن أعلاها ما تضمنته هذه الآية، وبقية المراتب تؤخذ بالمقايسة، وهذا يعني أيضاً في جواب العالم عما يلقي إليه من المسائل فإن كان قد انفرد بذلك أو كان قد عين للجواب مثل من يعين للفتوى في بعض الأقطار فعليه بيانه إذا علم احتياج السائل ويحيى في انفرداه بالعلم أو تعيينه للجواب وفي عدم انفرداه الوجهان السابقان في الوجوب العيني والوجوب الكفائي<sup>(1)</sup>.

• وفي معنى التحريف ذكر ابن عاشور قوله: "والتحريف: الميل بالشيء إلى الحرف وهو جانب الشيء وحافته، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ في سورة المائدة (13)، وهو هنا مستعمل في الميل عن سواء المعنى وصریحه إلى التأويل الباطل، كما يقال: تنكّب عن الصراط، وعن الطريق، إذا أخطأ الصواب وصار إلى سوء الفهم أو التضليل، فهو على هذا تحريف مراد الله في التوراة إلى تأويلات باطلة، كما يفعل أهل الأهواء في تحريف معاني القرآن بالتأويلات الفاسدة"<sup>(2)</sup>.

• ومثاله أيضاً في بيان القدر الإلهي ومعنى الأمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ بمعنى الشأن لأنه المناسب لإنكارهم قدرته على إحياء الرميم، أي لا شأن لله في وقت إرادته تكوين كائن إلا تقديره بأن يوجد، فعبّر عن ذلك التقدير الذي ينطاع له المقدر بقول: ﴿كُنْ﴾ ليعلم أن لا يباشر صنعه بيد ولا بألة ولا بعجن مادة ما يخلق منه كما يفعل الصنّاع والمهندسون، لأن المشركين نشأ لهم توهم استحالة المعاد من انعدام المواد فضلاً عن إعدادها وتصويرها، فالقصر إضافي لقلب اعتقادهم أنه يحتاج إلى جمع مادة وتكليفها ومُضِي مدة لإتمامها"<sup>(3)</sup>.

• وفي الرد على من طعن في نبوة محمد ﷺ قال ابن عاشور: "وهذه الآية صالحة للرد على نصارى زماننا الذين طعنوا في نبوته بمطاعن لا منشأ لها إلا تضليل وتمويه على عامتهم لأن الطاعنين ليسوا من الغباوة بالذين يخفى عليهم بهتانهم كقولهم إنه تزوج النساء، أو أنه قاتل الذين كفروا، أو أنه أحب زينب بنت جحش"<sup>(4)</sup>.

• ومن شواهد التزليل في هذا المجال كلامه عن القرآن الكريم وأسلوب القصص القرآني حيث قال: "وفيما ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا رأيته خطر لكثير من أهل اليقين والمتشككين وهو أن يقال: لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة في حصول المقصود منها. وما فائدة تكرار القصة في سور كثيرة ا وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم إلى مناهج الإلحاد في القرآن. والذي يكشف لسائر المتحيرين حيرتهم على اختلاف نواياهم وتفاوت

(1) المرجع السابق، (71/2).

(2) المرجع السابق، (75/5).

(3) المرجع السابق، (79/23).

(4) المرجع السابق، (17/26).

مداركهم أن القرآن - كما قلنا هو بالخطب والمواظع أشبه منه بالتأليف. وفوائد القصص تجتليها المناسبات وتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريراً لها لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى . كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعت المناسبات إلى أن وقف خطيباً في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته . وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي . ثم تحصل معه مقاصد أخرى : أحدها رسوخها في الأذهان بتكريرها"<sup>(1)</sup>

### ثانياً: العبادات

تعددت القضايا التي طبق فيها ابن عاشور النص القرآني على الواقع ومنها القضايا التعبدية، ومن الشواهد على ذلك ما يأتي:

• في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ بيّن ابن عاشور رحمه الله معنى الآية وذكر اختلاف الفقهاء في حكم أكل مالم يذكر اسم الله عليه، ولفت النظر إلى واقع بعض الناس في هذه المسألة فقال: "هي مسألة مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال : أحدها : أنّ المسلم إن نسي التسمية على الذبح تؤكل ذبيحته، وإن تعمّد ترك التسمية استخفافاً أو تجنّباً لها لم تؤكل، وهذا مثل ما يفعله بعض الزنوج من المسلمين في تونس وبعض بلاد الإسلام الذين يزعمون أنّ الجنّ تمتلكهم، فيتفادون من أضرارها بقرايين يذبحونها للجنّ ولا يسمّون اسم الله عليها، لأنّهم يزعمون أنّ الجنّ تنفر من اسم الله تعالى خيفة منه، (وهذا متفشّ بينهم في تونس ومصر) فهذه ذبيحة لا تؤكل . ومستند هؤلاء ظاهر الآية مع تخصيصها أو تقييدها بغير النسيان، إعمالاً لقاعدة رفع حكم النسيان عن الناس . وإنّ تعمّد ترك التسمية لا لقصد استخفاف أو تجنّب ولكنّه تناقل عنها، فقال مالك، في المشهور، وأبو حنيفة، وجماعة، وهو رواية عن أحمد : لا تؤكل . ولا شك أنّ الجهل كالنسيان، ولعلّهم استدلّوا بالأخذ بالأحوط في احتمال الآية اقتصاراً على ظاهر اللفظ دون معونة السياق"<sup>(2)</sup> .

• ذكر ابن عاشور عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ... ﴾ متابعتة للمالكية في مسألة الإرضاع ثم مخالفتها لهم فقال: "وقد جرى في كلام المالكية في كتب الأصول: أن مالكاً خصص عموم الوالدات بغير ذوات القدر، وأن المخصص هو العرف، وكنا نتابعهم على ذلك ولكني الآن لا أرى ذلك متجهاً ولا أرى مالكاً عمداً إلى التخصيص أصلاً، لأن الآية غير مسوقة لإيجاب الإرضاع"<sup>(3)</sup> .

(1) المرجع السابق، (68 / 1).

(2) المرجع السابق، (40 / 8).

(3) المرجع السابق، (440 / 2).

### ثالثاً: القضايا الاجتماعية

وتعد من أبرز القضايا التي طبق فيها النص على الواقع : فقد بين حال الناس في عصره واشتكى من بعض المظاهر المنتشرة في عصره مثل: الربا والحسد والبدع والمنكرات، والإسراف، وبين أهمية الإصلاح الاجتماعي، ومن الشواهد على ذلك ما يأتي:

• قال ابن عاشور في ضرورة التخلص من الربا: "فلما صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلامية، وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملة، وانتظمت سوق التروة العالمية على قواعد القوانين التي لا تتحاشى المراهبة في المعاملات، ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين، دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون، وتحريم الربا في الآية صريح، وليس لما حرّمه الله مبيح . ولا مخلص من هذا المضيق إلا أن تجعل الدول الإسلامية قوانين مالية تُبنى على أصول الشريعة في المصارف، والبيوع، وعقود المعاملات المركبة من رؤوس الأموال وعمل العمّال . وحوالات الديون ومقاصتها وبيعها . وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدريس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كلّ فرقة كما أمر الله تعالى".<sup>(1)</sup>

• وذكر في مسألة دفن الميت بعض البدع التي يفعلها الناس فقال: "فيؤخذ من الآية وجوب الدفن في الأرض إلا إذا تعذر ذلك كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإرساء، أو كان الإرساء يضر بالراكبين أو يخاف تعفن الجثة فإنها يُرمى بها في البحر وتثقل بشيء لترسب إلى غريق الماء . وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مجوس الهند، وكان يفعله بعض الرومان. ولا وضعه لكواسر الطير كما كان يفعل مجوس الفرس، وكان أهل الجاهلية يتمدحون بالميت الذي تأكله السباع أو الضباع وهو الذي يموت قتيلاً في فلاة، قال تأبط :

لا تدفنونني إنّ دَفني مُحرّم عليكُم ولكنّ خَامري أمّ عامر

وهذا من جهالة الجاهلية وكُفران النعمة".<sup>(2)</sup>

• وعند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَتَّأْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى الْبَعْضِ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ ﴾ قال ابن عاشور: "وقد أصبح هذا التميّ في زماننا هذا فتنة لطوائف من المسلمين سرت لهم من أخلاق الغلاة في طلب المساواة ممّا جرّأهم كثيراً إلى نحلة الشيوعية فصاروا يتخبّطون لطلب التساوي في كلّ شيء ويعانون إرهاباً لم يحصلوا منه على طائل، فالنهي عن التميّ وتطلّع النفوس إلى ما ليس لها جاء في هذه الآية عامّاً، فكان كالتدليل للأحكام السابقة لسدّ ذرائعها وذرائع غيرها، فكان من جوامع الكلم في درء الشرور . وقد كان التميّ من أعظم وسائل الجرائم، فإنّه يفضي إلى الحسد، وقد كان أوّل جرم حصل في الأرض نشأ عن الحسد . ولقد كثّر ما انتهبت أموال، وقتلت نفوس للرغبة

(1) التحرير والتنوير، (4 / 87).

(2) المرجع السابق، (29 / 433).

في بسطة رزق، أو فتنه نساء، أو نوال مُلك، والتاريخ طافح بحوادث من هذا القبيل<sup>(1)</sup>.

• وعند بيانه اصطناع أخوة يوسف البكاء عليه عند عودتهم إلى أبيهم في قول الله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف: 16]، استخدم التنزيل في بيان الآية حيث قال: "بعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط بها حكمًا، وإنما يناط الحكم بالبينة. جاءت امرأة إلى شريح<sup>(2)</sup> تخاصم في شيء وكانت مبطلّة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق... ومن الأمثال "دموع الفاجر بيديه" وهذه عبرة في هذه العبرة"<sup>(3)</sup>.

• وفي مجال القضاء ما ذكره عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ سُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَمْدِدُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَمْرَضُوا فَأِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: 135]، استشهد بمحيطه العملي فقال: "وقد عرفت قاضيًا لا مطعن في ثقته وتزهره، ولكنه كان مبتلى باعتقاد أن مظنة القدرة والسلطان ليسوا إلا ظلمة: من أغنياء أو رجال، فكان يعتبر هذين الصنفين محقوقين فلا يستوفي التأمل من حججهما"<sup>(4)</sup>، مؤكدًا ضرورة النظر في معطيات قضيته ولا يصرفه حال صاحبه عن استيفائها؛ فإن الذي يراعي حال الغني والفقير ويقدر إصلاح حال الفريقين هو الله تعالى.

رابعاً: في بيان حال الأمم الأخرى، وتنزيل الآيات عليهم

تعرض ابن عاشور رحمه الله في تفسيره لبيان حال الأمم الأخرى كالنصارى وبني إسرائيل والغرب المعاصر... ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

• عند قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ أَلَيْ كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ قال رحمه الله "فهذه حالة النصارى في وقت نزول الآية ثم إن النصارى من العصور الوسطى إلى الآن توسعوا فتركوا استقبال جهة معينة فلذلك تكون كنائسهم مختلفة الاتجاه وكذلك المذاهب المتعددة في الكنيسة الواحدة"<sup>(5)</sup>.

(1) المرجع السابق، (28/5).

(2) هو: شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي: يُكنى: بأبي أمية، أدرك الجاهلية، وكان من كبار التابعين، ثقة شاعرًا قائمًا قاضيًا، بل أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل ورياسة، استقضاه عمر بن الخطاب ؓ على الكوفة، فأقام قاضيًا خمسًا وسبعين سنة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنه ابن الزبير ؓ، اختلف في وفاته، فقيل: 87هـ، وقيل: 80هـ، وقيل: 78هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد، (193-182/6)، وفيات الأعيان، لابن خلكان، (463-460/2).

(3) التحرير والتنوير، (236/12).

(4) المرجع السابق، (227/5).

(5) المرجع السابق، (10/2).

• وذكر أيضا في تفسير معنى الميثاق في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ قَوْلَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ قَوْلًا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْهَرٌ مِنَ الْقَاسِرِينَ ﴿٣٨﴾. فقال: "والميثاق في هاته الآية كالعهد في الآيات المتقدمة مراد به الشريعة ووعدهم بالعمل بها، وقد سمته كتبهم عهداً كما قدمنا وهو إلى الآن كذلك في كتبهم".<sup>(1)</sup>

• وذكر أيضا حال النصرارى كما بينته الآية الكريمة وكما هو واقعهم المنطوي على البغض والعداء والانقسام في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَوُكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فقال موضحا واقعهم: "ثم إن دولهم كانت منقسمة ومتحاربة، ولم تزل كذلك، وإنما تألبوا في الحروب الصليبية على المسلمين ثم لم يلبثوا أن تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن . وكم ضاعت مساعي الساعين في جمعهم على كلمة واحدة وتأليف اتحاد بينهم، وكان اختلافهم لطفاً بالمسلمين في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، على أن اتفاقهم على أمة أخرى لا ينافي تمكن العداوة فيما بينهم، وكفى بذلك عقاباً لهم على نسيانهم ما ذكروا به"<sup>(2)</sup>.

• أشار إلى التحريف الواقع في التوراة الموجودة الآن فقال: "وابن نوح هذا هو ابن رابع في أبنائه من زوج ثانية لنوح كان اسمها (وَأَعْلَةَ) غرقت، وأنها المذكورة في آخر سورة التحريم. قيل كان اسم ابنه (ياماً) وقيل اسمه (كنعان) وهو غير كنعان بن حام جد الكنعانيين . وقد أهملت التوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه وهل كان ذا زوجة أو كان عزباً"<sup>(3)</sup>.

• وقال أيضا عند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٤٠﴾ مُطَّلِعٍ فَارْمِينِ ﴿٤١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٤٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٤٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٤٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٤٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ "وفي هذه الآية إشارة بينة على أن من الخطأ أن يوزن حال الدين الإسلامي بميزان أحوال بعض المسلمين أو معظمهم كما يفعله بعض أهل الأنظار القاصرة من الغربيين وغيرهم إذ يجعلون وجهة نظرهم التأمل في حالة الأمم الإسلامية ويستخلصون من استقراءها أحكاماً كلية يجعلونها قضايا لفلسفتهم في كنه الديانة الإسلامية"<sup>(4)</sup>.

#### خامساً: في بيان بعض القضايا العلمية

• ففي مجال الإعجاز العلمي: استخدم ابن عاشور كثيرا قضايا الإعجاز العلمي في

(1) التحرير والتنوير، (1 / 541).

(2) المرجع السابق، (6 / 149).

(3) المرجع السابق، (12 / 75).

(4) المرجع السابق، (30 / 167).

التنزيل القرآني ومن الأمثلة على ذلك: قال: "ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلاقة لأن الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جداً لا ترى إلا بالمرآة المكبرة أضعافاً"<sup>(1)</sup>.

• في مجال الطبيعيات: جمع قوله تعالى: ﴿ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ [البقرة: 164] أصول علم التاريخ الطبيعي وهو المواليد الثلاثة المعدن والنبات والحيوان، زيادة على ما في بقية الآية سابقاً ولاحقاً من الإشارات العلمية الراجعة لعلم الهيئة وعلم الطبيعة وعلم الجغرافيا الطبيعية وعلم حوادث الجو"<sup>(2)</sup>.

• في مجال علم العمران: ما بينه في قوله تعالى: ﴿ قَبَعَتِ اللَّهُ عُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوزِلْنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْعُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أُنْحَى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّارِ مِيمٍ ﴾ [المائدة: 31] فقال: "وهذا المشهد العظيم هو مشهد أول حضارة في البشر، وهي من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة. وهو أيضاً مشهد أول علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضاً مشهد أول مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه كما تشبه الناس بالحيوان في الزينة، فلبسوا الجلود الحسنة الملونة وتكلموا بالريش الملون وبالزهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتاريخ والدين والخلق"<sup>(3)</sup>.

• في علم الطب: ما ذكره عند بيان قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفُ الْأَسْنَانُ وَاللُّوْنُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: 22]، حيث يرى: "أن اختلاف ألوان البشرية؛ لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وله لون واحد لا محالة، ولعله البياض المشوب بحمرة، فلما تعدد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم... وأن التشريح أثبت أن ألوان لحوم البشر التي تحت الطبقة الجلدية متحدة اللون"<sup>(4)</sup>.

• في علم الجغرافيا: ما ذكره من معادن الأرض حين بيانه قول الله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ [الإسراء: 50]، حيث قال: "الحديد: تراب معدني، أي لا يوجد إلا في مغاور الأرض، وهو تراب غليظ مختلف الغلظ، ثقيل أذكن اللون، وهو إما محتت الأجزاء وإما مورقها، أي مثل الورق. وأصنافه ثمانية عشر باعتبار اختلاف تركيب أجزائه، وتتفاوت ألوان هذه الأصناف، وأشرف أصنافه الخالص، وهو السالم في جميع أجزائه من المواد الغربية. وهذا نادر الوجود وأشهر ألوانه الأحمر، ويقسم باعتبار صلابته إلى صنفين أصليين يسميان الذكر والأنثى، فالصلب هو الذكر واللين الأنثى. وكان العرب يصفون السيف الصلب القاطع بالذكر. وإذا صهر الحديد بالنار تمازجت أجزاؤه وتميع وصار كالحلواء، فمنه ما يكون حديد صب،

(1) المرجع السابق، (30 / 438).

(2) المرجع السابق، (2 / 84).

(3) المرجع السابق، (6 / 174).

(4) المرجع السابق، (21 / 74-75).

ومنه ما يكون حديد تطريق، ومنه فولاذ. وكل صنف من أصنافه صالح لما يناسب سبكه منه على اختلاف الحاجة فيها إلى شدة الصلابة مثل السيوف والدروع"<sup>(1)</sup>.

• في علم التاريخ: ما ذكره من تاريخ بني إسرائيل حيث قال: "جاء في التاريخ أن مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر كان سببه دخول يوسف ÷ في تربية العزيز طيفار كبير شرط فرعون، وكانت مصر منقسمة إلى قسمين مصر العليا الجنوبية المعروفة اليوم بالصعيد لحكم فراعنة من القبط وقاعدتها طيبة، ومصر السفلى وهي الشمالية وقاعدتها منفيس وهي القاعدة الكبرى التي هي مقر الفراعنة، وهذه قد تغلب عليها العمالقة من الساميين أبناء عم ثمود وهم الذين يلقبون في التاريخ المصري بالرهاة الرحالين والهكصوص في سنة 3300 أو سنة 1900 قبل المسيح على خلاف ناشئ عن الاختلاف في مدة بقائهم بمصر الذي انتهى سنة 1700 ق م عند ظهور العائلة الثامنة عشرة، فكان يوسف عند رئيس شرط فرعون العمليقي، واسم فرعون يومئذ أبو فيس أو أبيي، وأهل القصص ومن تلقف كلامهم من المفسرين سموه ريان بن الوليد، وهذا من أوهامهم، وكان ذلك في حدود سنة 1739 قبل ميلاد المسيح، ثم كانت سكنى بني إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى"<sup>(2)</sup>.

فهذه الأمثلة والشواهد تدل على مدى عناية الامام ابن عاشور رحمه الله بربط معاني الآيات وتنزيلها على الواقع المعاصر، كما تدل على سعة علمه وتنوع الموضوعات التي تناولها، والعلوم والفنون التي أبدع فيها.

### المطلب الثاني: أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي

عُرف الشيخ ابن عاشور رحمه الله بحرصه وعظيم عنايته بإصلاح من حوله، فلا يكاد يغادر سبيلًا إلى الإرشاد إلا واغتنمه، فيستنتج الآراء الحكيمة من الدلالات البعيدة ويقدمها تقديم المرابي الواعي الحريص على ذويه ومجتمعه، ومن ذلك إشارته إلى مسلك تربوي عظيم حين بيانه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، "وقوله: (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) جملة حالية... قد جعلت هاته الحال محط النهي والنفي تلميحًا في الكلام للجمع بين التوبيخ وإثارة الهمة؛ فإنه أثبت لهم علمًا ورجاحة الرأي ليثير همتهم ويلفت بصائرهم إلى دلائل الوجدانية، ونهاهم عن اتخاذ الآلهة أو نفس ذلك مع تلبسهم به وجعله لا يجتمع مع العلم توبيخًا لهم على ما أهملوا من مواهب عقولهم وأضاعوا من سلامة مداركهم. وهذا منزع تهذيبي عظيم، أن يعتمد المرابي فيجمع لمن يربيه بين ما يدل على بقية كمال فيه حتى لا يقتل همته باليأس من كماله؛ فإنه إذا ساءت ظنونه في نفسه خارت عزيمته وذهبت مواهبه، ويأتي بما يدل على نقائص فيه ليطلب الكمال فلا يستريح من الكد في طلب العلا

(1) التحرير والتنوير، (15/126).

(2) المرجع السابق، (1/491-490).

ولذا اهتم ابن عاشور رحمه الله بإصلاح الواقع الاجتماعي في عصره من خلال كتاباته، ففي كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام يبين كيفية إصلاح العمل ودوره في إصلاح الفرد والمجتمع، فابتدأ ذلك بقوله: "أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم، فجدير بمن صلحت عقائده وأفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة"<sup>(2)</sup>، ثم استأنف في شرح هذه المقدمة في أكثر من بضع عشرة صفحة<sup>(3)</sup>.

وفي كتابه التحرير والتنوير ذكر ابن عاشور في المقدمة الرابعة أن من أعظم مقاصد المفسر عند تفسيره أي القرآن أن تكون غايته إصلاح أحواله الفردية والجماعية والعمرائية فقال: (إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لإصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى) وأنزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرائية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتهما، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات وموآثية القوى النفسانية. وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع)<sup>(4)</sup>.

وذكر فيه أيضا أهمية النظر إلى المصالح والإعراض عن العوائق، فلا يعرض الإنسان عن المصلحة المحققة لأجل المفسدة المحتملة، ومن أمثلة ما يؤكد على هذا المنهج استنباطاته من قوله تعالى: ﴿وَمَسْأَلُكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۚ وَإِن تُحَاطَبُوا فَاخْرُتُمْ وَأَلَّه يَعْزِمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُم مِّنَ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: 220]، حيث قال: "وفي هذه إشارة إلى أنه ليس من المصلحة أن يعرض الناس عن النظر في أموال اليتامى اتقاء لألسنة السوء، وتهمة الظن بالإثم، فلو تمألاً الناس على ذلك وقاية لأعراضهم لضاعت اليتامى، وليس هذا من شأن المسلمين؛ فإن على الصلاح والفساد دلائل ووراء

(1) التحرير والتنوير، (1/335).

(2) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لابن عاشور (29، 58).

(3) انظر: المرجع السابق، (ص: 58-74).

(4) التحرير والتنوير، (1/38).

المتصرفين عدالة القضاة وولاية الأمور يجازون المصلح بالثناء والحمد العلن ويجازون المفسد بالبعد بينه وبين اليتامى وبالتغريم بما أفاته بدون نظر"<sup>(1)</sup>.  
والخلاصة أن ابن عاشور قد وظف في تفسيره الدعوة إلى إصلاح حال الأمة، لإنقاذها مما هي عليه من القضايا المتنوعة في عصره التي تخالف الشرع، والبحث عن علاجها من خلال تنزيل الآيات على الواقع.

### الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:  
ففي نهاية هذا البحث الذي تناولت فيه موضوع تنزيل النص القرآني على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي من خلال تفسير التحرير والتنوير للإمام ابن عاشور رحمه الله، والوقوف على طرف من علمه وفقهه في تفسير آيات القرآن الكريم وتنزيلها على الواقع، أخلص فيه إلى أهم النتائج والتوصيات كالآتي:

#### أولاً: نتائج البحث

- 1- تبين من خلال البحث في مفهوم تنزيل النص على الواقع قلة من كتب في تأصيل هذه القضية، وتقصير العلماء والباحثين في بيان علم التنزيل تأصيلاً وتطبيقاً، ولعل هذا الملتقى يسد هذه الثغرة العلمية ويجلي فروعها النظرية والتطبيقية.
- 2- عناية الإمام ابن عاشور رحمه الله بضوابط التنزيل ومن أبرزها: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن تفسير القرآن مرتبط بفقهِ المقاصد، وإن مشاهدة الواقع يعين على تفسير الآيات القرآنية.
- 3- من أبرز معالم منهج ابن عاشور رحمه الله في تنزيل النص على الواقع: لفت النظر إلى أحوال المخلوقات وواقعها عند تفسير الآيات، والتنوع في استخدام ألفاظ التنزيل المباشرة وغير المباشرة وتوظيف النظريات الحديثة في التنزيل.
- 4- تنوعت الموضوعات التي عني فيها الإمام الطاهر بن عاشور بتنزيل النص على الواقع، فشملت الجوانب الإيمانية والتعبدية والاجتماعية والأحوال العامة وفي مجال العلوم والفنون الطبيعية والإنسانية.
- 5- إن ابن عاشور كان حريصاً على إصلاح واقعه ومجتمعه؛ فلم يكتف بتنزيل الآيات على الواقع من خلال تفسيره التحرير والتنوير وإنما ناقشه وعالجه من خلال كتبه الأخرى مثل: "أصول النظام الاجتماعي" و"أليس الصبح بقريب".

#### ثانياً: التوصيات:

(1) المرجع السابق، (358/2).

- 1- أوصي أهل العلم بالعناية بكتاب الله تعالى فهما وتدبرا، علما وعملا.
  - 2- أوصي الباحثين في مجال الدراسات القرآنية أن يعنوا بالبحث عن مسألة تنزيل النص القرآني على الواقع تأصيلا وتطبيقا.
  - 3- أوصي الباحثين في الدراسات العليا والمراكز البحثية بإعداد مشروعات بحثية تعنى بجمع أقوال المفسرين في تنزيل النص القرآني على الواقع.
  - 4- أوصي القائمين على برامج الإعلام بمختلف أنواعه أن يوظفوا مسألة تنزيل النص القرآني على الواقع في إصلاح الفرد والمجتمع والأمة.
- هذا والله أسأل أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن العظيم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

### فهرس المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر ابن عاشور، ط2، (تونس: دار سحنون، 1427هـ-2006م).
- 3- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر.
- 4- تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ط2، (بيروت: دار الغرب الإسلامية، 1414هـ - 1994م).
- 5- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، عدد الأجزاء: 1
- 6- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر/ بحث منشور في سلسلة الدراسات القرآنية(4) الصادرة عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 1428هـ/2007م.
- 7- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة، سلسلة المنهجية الإسلامية (5).
- 8- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، عدد الأجزاء: 30
- 9- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ-1990م).
- 10- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 15.
- 11- مجالس التذكير، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، المحقق: عمار طالي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى (عام 1388 هـ - 1968 ميلادية)، عدد الأجزاء: 4 أجزاء.
- 12- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008 م، عدد الأجزاء: 4.

- 13- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق : عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، الطبعة: 1399هـ - 1979م، عدد الأجزاء: 6
- 14- من أعلام الزيتونة الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، بلقاسم الغالي، ط1، (تونس: دار سحنون، 1436هـ-2015م).
- 15- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى : 1367هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة
- 16- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي الهانوي (المتوفى: بعد 1158هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة الأولى - 1996م، عدد الأجزاء: 2.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ط1، (بيروت: دار صادر، 1351هـ-1971م).